الدراسات اللغوية

وأثرها في فهم النصوص الشرعية

دكتور

مهناوي عبد الباقي

أستاذ بجامعة عبد الحفيظ بوالصوف –ميلة- الجزائر.

مؤتمر
كلية
الدراسات
الإسلامية

مؤتمر
كلية
الدراسات
الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤتمر
كلية
الدراسات
الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام وعلى أشرف المرسلين وبعد

مقدمة

نزل القرآن بلسان العرب، ورسول الله ﷺ أفصح العرب بيد أنه من قريش.

فالنصوص الشرعية والمتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يتوقف فهمها على الإحاطة بكلام العرب ومعرفته معرفة تامة كما هو الحال عند علمائنا القدماء الذين برعوا في ميادين شتى والمتمثلة في علوم اللغة العربية. والتي كان المقصد منها هو فهم النص الشرعي فهما صحيحا سليما.

إنّ ممّا تعاني منه الأمة الإسلامية اليوم هو ظهور أولئك الذين يفهمون النص الشرعي بحسب أهوائهم ورغباتهم. أضف إلى ذلك أولئك الطوائف الكلامية التي تفهم النص الشرعي بحسب ما يخدم مبادئها وآراءها الكلامية.

فإذا تطرقنا بالحديث إلى الفرق الكلامية فإنه يمكن لنا أن تقول أنّ هذه الفرق وجدت منذ القدم إلا أنها تلقت الردود المقنعة والأدوية الشافية للعلل والأسقام من علماء السنة وكفي بذلك مثالا ردود فخر الدين الرازي عليهم وإفحامه لهم بالحجة الساطعة وبالدليل القاطع.

جذور هذه الفرق ما زالت ممتدة حتّى اليوم ربما أقول هاهو صيتها يذيع وهاهو صداها يكاد ينتشر وسبب ذلك هو محاولتها نشر مبادئها الكلامية إلى غير ذلك.

نحن بصدد الحديث عن فهم النص الشرعي وأثر الدراسات اللغوية في

ذلك وقبل التطرق إلى ذلك يجب علينا أن يتطرق إلى أولئك الضالين الذين لا علاقة لهم بلغة العرب على الإطلاق وأصبحوا يقولون الله عز وجل ما لم يقل أضف إلى ذلك أنهم أصبحوا يؤولون النص القرآني على ما يساير أهوائهم وغير ذلك كثير.

فما هي آليات فهم النص الشرعي فهما صحيحا سليما؟ وما أثر الدراسات اللغوية في فهم النصوص الشرعية؟ وما هي تلك الدراسات المعنية على وجه الخصوص؟ وما هي السبل المجدية في فهم النص الشرعي؟

كل تلك التساؤلات سنجيب عنها من خلال بحثنا هذا الذي ارتأينا أن نتبع فيه المنهج التحليلي واعتمدنا فيه خطة تتمثل في:

١-الدراسات اللغوية عند القدماء

٢-الدراسات اللغوية عند المحدثين

٣-اللغة العربية والنص الشرعي.

٤-العربية من لغات الشعوب الإسلامية

٥-تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

٦-تعليم اللغة العربية للناطقين بها.

٧-الدراسات اللغوية وأثرها في فهم النصوص الشرعية.

أ-الدراسات النحوية .

ب-الدراسات البلاغية.

ج-المفردات والمعاجم.

٨-خاتمة.

١-الدراسات اللغوية عند القدماء:

لقد عنى القدماء بالدراسات اللغوية لأجل فهم كتاب الله عز وجل وكلام رسوله ﷺ.

فقد ظهر علم النحور بعد ظهور وتفشي ظاهرة اللحن. وذلك بعد اختلاط العرب بغيرهم. وظهور هذا العلم هو من أجل حماية اللسان العربي وحفظه من الزلل، ومن جهة أخرى فهم كتاب الله عز وجل الذي نزل بلسان عربي مبين قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١). ونزوله باللغة العربية هو كونها أوسع اللغات وسلامتها نطقا وفهما.

فجهود القدماء في الدرس اللغوي تنوعت وتعددت. ذكرنا منها علم النحو على سبيل الإجمال. ونذكر منها علم البلاغة الذي ظهر نتيجة البحث في أسلوب القرآن الكريم، فكل تلك العلوم اللغوية الهدف منها هو فهم النص الشرعي فهما صحيحا ودقيقا.

درس أسلافنا رحمهم الله تعالى مختلف أنواع علوم اللغة لأجل فهم كتاب الله وكلام نبيه ﷺ لا كما يقول الغربيون اليوم، «اللسانيات هي دراسة اللسان في ذاته ومن أجله».

لقد اشتد باع المسلمين في الدرس اللغوي القديم. وتفننوا فيه غاية تفنن وتركوا نتاجا ضخما ذلك النتاج الذي يتمثل في التراث اللغوي والتراث النحوي والبلاغي. والتفسير والدراسات القرآنية والأدب والفقه والأصول وغير ذلك.

فكل ذلك لأجل حفظ لغة الضاد التي بها يفهم النص الشرعي فهما يبعد

---

(١) _ سورة يوسف، الآية: ٢.

عن التحريف وعن التأويل الباطل. فترى على سبيل المثال صاحب الكتاب كان شديد الأخذ. فبينما هو يستملي قول النبي ﷺ «ليس من أصحابي إلاّ من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء» فقال سيبويه: «ليس أبو الدرداء» وظنّه اسم ليس. فقال حمّاد: لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، وإنّما "ليس" ها هنا استثناء فقال: لا جرم سأطلب علما لا تلحنّي فيه، فلزم الخليل فبرع (١).

فالسبب في معرفته هذه الصناعة هو ذلك اللحن، والقصد من المعرفة هو الفهم الصحيح للنص الشرعي.

وأنت ترى انكباب المسلمين على الدرس اللغوي القديم بشتى فروعه ومذاهبه لا لشيء. إلاّ لفهم النص الشرعي فهما سليما دقيقا.

فلقد لفت أنواع علوم العربية اهتماما بالغا وعناية خاصة لدى القدماء الذين أصلّوا ونظّروا ووضعوا القواعد والضوابط وكانوا سباقين حتى لبعض العلوم اللغوية التي ذاع صيتها اليوم عند الغربيين.

فتراثنا يزخر بكل أنواع علوم اللغة ونحن نفخر بما ترك لنا أسلافنا وأي تراث مليء كالتراث العربي الإسلامي.

٢-الدراسات اللغوية عند المحدثين

إنّ المحدثين يسعون جاهدين في مواصلة درب الأسلاف فهاهم يكتبون ويدوّنون، وذلك كامتداد للدرس اللغوي العربي القديم، ولكن ما يعاب على بعض هؤلاء هو تأثرهم بالدرس اللغوي العربي لا فيما يخدم درسنا العربي بل فيما يكون نقيضا لدرسنا العربي ولا يتماشى مع النص الشرعي.

---

(١) _ ينظر: سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، دار التاريخ، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ج١، ص٨.

ويكمن ذلك في تطبيق بعض المناهج اللسانية الغربية على النص القرآني وهذا ضرب من المحال.

فاللسانيات الغربية تبقى غربية وإن استمد منها ما يخدم درسنا العربي إلاّ أنه ينبغي الحرص الشديد على عدم تطبيقها بحذافيرها على الخطاب القرآني ذلك الخطاب الرباني الذي يخاطب العقل والقلب معا.

فنحن لا ننكر على المحدثين تأثرهم بالدرس اللغوي العربي بل ننكر عليهم استمداد ما يتنافى مع النص القرآني ولا يخدم درسنا العربي من جهة أخرى، وإذا أردنا أن نقف على ذلك فلنضرب مثالا يقال على البلاغة العربية القديمة.

هناك من يرى أن البلاغة العربية قد ماتت. وعلّلوا ذلك بكونها تخضع إلى المعيارية وإلى المنطق الأرسطي صحيح أن القدماء تأثروا بالمنطق الأرسطي. ولكن أولئك الفطاحل يعرفون ما يأخذون ويعرفون ما يردّون ولا يقدمون أي جهد لغوي على جهودهم. فما أخذوه كان فعلا يخدم درسنا العربي، فلا عمري إذا سلّمنا بموت البلاغة القديمة فأين كنه إعجاز القرآن الكريم؟

فعلينا أن نتبصّر وأن نعلم أنّ جهود غير المسلمين لا تخدم اللغة العربية ولا الدراسات القرآنية. وأذهب إلى أبعد من ذلك. أذهب إلى الطوائف الكلامية فالحال عندها يكاد يقترب ممّا عند الغربيين ألا ترى بعضهم يقدم القاعدة على النص القرآني ويجعل النص القرآني يخضع للقاعدة النحوية. فالقرآن حجة على غيره وليس غيره حجة عليه.

وفي الوقت نفسه فإن جمعا غفيرا من المحدثين يدافع عن القرآن الكريم وعن السنة النبوية. ويكمن ذلك الدفاع في الإنتاج اللغوي. ومن جهة أخرى فإن هؤلاء المحدثين ما زالوا ولا زالوا يطورون الدرس اللغوي العربي

أيما تطور. بغية فهم النص الشرعي فهما صحيحا وسليما.

٣-اللغة العربية والنص الشرعي:

إنّ اللغة العربية لغة القرآن الكريم و«هذه الشريعة المباركة عربية لا مدخل فيها للألسن العجمية»(١).

فإنّ القرآن الكريم عربي وأنه «نزل بلسان العرب على الجملة فطلب فهمه إنّما يكون من هذا الطريق خاصة»(٢).

ففهمه يتوقف على معرفة اللغة العربية ومعرفة أساليبها لأن القرآن الكريم «أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليبها ومعانيها. وأنّها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعامّ يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العامّ في وجه والخاص في وجه وبالعام يراد به الخاص والظاهر يراد به غير الظاهر»(٣).

فهذه أساليب ومعاني معروفة في لغة العرب يتوقف عليها وعلى غيرها فهم كتاب الله الذي قال فيه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٥). وقال تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (٦). وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ

---

(١) _ إبراهيم موسى بن محمد أبو إسحاق الشاطبي، تح محمد الاسكندراني، عدنان درويش، الموافقات في أصول الشريعة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢، ج٢، ص ٢٣٦.

(٢) _ المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٣٦.

(٣) _ المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٣٧.

(٤) _ سورة يوسف، الآية ٢.

(٥) _ سورة الشعرا، الآية ١٩٥.

(٦) _ سورة النحل، الآية ١٠٣.

قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (١).

فهذه الآيات تدل على أن القرآن الكريم عربيّ «ولسان العربي أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ولا نعلمهم يحيط بجميع علمه إنسان غير نبيّ، ولكنّه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه»(٢).

فلأ جل ذلك نزل القرآن الكريم على هذه اللغة الشريفة كونها أوسع الألسنة كما سبق أن ذكرنا.

إنّ فهم النص القرآني يتوقف على فهم اللغة العربية ومعرفتها معرفة صحيحة ويتطلّب الإحاطة بأنواع علومها، فهي الأداة المستعملة في فهم النص الشرعي.

فإذا كان القرآن الكريم في معانيه وأساليبه على ذلك الترتيب الموجود في كلام العرب فإنه لا يمكن فهمه إلاّ بالإحاطة بلسان العرب ولأنه «كما أنّ لسان بعض الأعاجم لا يمكن أن يفهم من جهة لسان العرب كذلك لا يمكن أن يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم»(٣). فإذا كان العربي الذي يفهم لغة العجمي ولا دراية له بأساليبها. فإن العجمي لا يفهم لغة العربي ولا دراية له بأساليبها.

ونحن في هذا الصدد نبين أثر اللغة العربية في فهم النص الشرعي فلا يمكن أن يتكلم في شرع الله عز وجل قبل معرفة اللغة العربية وأساليبها.

---

(١) _ سورة فصلت الآية ٤٤.

(٢) _ الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تح خالد السبع العلمي، زهير شفيق....دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩، ص ٦٢.

(٣) _ الشاطبي، الموافقات، ج٢، ص ٢٣٧.

وها نحن اليوم نرى بعض أولئك الذين يعرفون أساليب اللغة العربية وفنونها وأنواع علومها. يخبطون خبطا عشواء، ويخلطون خلطا عجيبا، فهاهم يتكلمون في كتاب الله عز وجل دون فهم ولا معرفة ولا دراية.

إنهم أضحوا يبيحون ما حرّم الله عز وجل نتيجة الفهم الخاطئ وعدم معرفتهم اللغة العربية ألا ترى أنهم فيقولون في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [1]، فيقولون معنى الآية اجتناب الخمر فقط، وأنها لا تفيد التحريم وينسون أن الأمر باجتناب الشيء أشد تحريما فيا للعجب، ويا للحرقة عما يقوله هؤلاء . فها هو الجهل باللغة العربية وبعلم أصول الفقه يؤدي إلى الضلال المبين، ولا ننسى أن اللغة العربية مستهدفة من طرف أعداء الدين.

ولا يتوقف استهدافها عندها فحسب. بل استهداف اللغة العربية معناه استهداف الدين الإسلامي الحنيف. فالاستعمار الفرنسي في الجزائر لما أراد أن يقضي على الدين بدأ بحربه على اللغة العربية فمن أراد فهم النص الشرعي لزمه فهم اللغة العربية.

٤-العربية من لغات الشعوب الإسلامية.

إنّ لغات الشعوب الإسلامية تتعدد وتتباين لا سيما وأن رسالة سيدنا وحبيبنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، تتسم بالشمولية وأنه مخاطب بها كل من الجن والإنس وأنها الرسالة الناسخة للرسالات السماوية السابقة. ومن اتبع غير الإسلام فإن الله تعالى وعده جهنم

(١) _ سورة المائدة الآية ٩٠.

والعياذ بالله قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (١). فهو «إخبار من الله تعالى بأنّه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام. وهو إتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتّى ختموا بمحمد ﷺ فمن لقي الله بعد بعثه محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل»(٢). فالدين المتبع هو شريعة محمدﷺ وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣). فمن اتبع غير الإسلام فلن يقبل منه ما اتبعه.

وقال الله تعالى:﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٤). فهذا وعيد منه سبحانه وتعالى لمن يشاقق الرسول ﷺ ويتبع غير سبيل المؤمنين.

فما كانت رسالة سيدنا محمد ﷺ شاملة دخل غير العرب إلى الإسلام و«ثبت عبر تاريخ حضارة القرآن أنّ اللغة العربية مرتبطة ارتباطا وثيقا بدين الإسلام حيث دخل دخلت» (٥). فهذا الارتباط الوثيق وكون اللغة العربية لغة القرآن. وأنّ من دخل في الإسلام يجب عليه تعلمها. «وكلّ من اتخذ القرآن الكريم إماما والحديث الشريف هاديا ومرشدا جعل من العربية

(١) _ سورة آل عمران الآية ١٨.

(٢) _ أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢، ج١، ص ٥٤٩.

(٣) _ سورة آل عمران، الآية ٨٥.

(٤) _ سورة النساء الآية ١١٥.

(٥) _ محمد الآوراغي، اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٠، ص ٢٢٥.

لسانا موّصلا إلى معرفة شرع الله حق المعرفة» [١].

فاللغة العربية هي اللسان الموّصل إلى معرفة الشرع الكريم إذ هي المرشد والهادي إلى ذلك. فعن طريقها تحصل معرفة وفهم النصوص الشرعية والمتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة فهي «أداة لتوثيق العرى بين الشعوب الإسلامية المقدّرة بمئات الملايين، ووسيلة لفتح خزائن المعرفة التي خلّفها السلف في شتّى حقول العلم طيلة أربع عشرة قرنا»[٢]. فهذه الشعوب الإسلامية وخاصة في حاضرنا الإسلامي ينبغي عليها الإحاطة التامة بأنواع علوم اللغة العربية. بل الأمر يتعدّى حتى العرب أنفسهم. وعليه يمكن لنا أن تقول كل من أراد أن يتحدث في شرع الله عز وجل. وجب عليه معرفة اللسان العربي والإحاطة به إحاطة تامة. ويجب الأخذ بالحيطة والحذر اتجاه النص الشرعي لأنه «لا بد في فهم الشريعة من إتباع معهود الأمّيين–وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم– فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمرّ فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة وإن لم يكن ثم عرف فلا يصح أن يجري في فهمها على مالا تعرفه»[٣]. إذ أن اللسان العربي أساس فهم النص الشرعي، وما تعارف عليه العرب بخصوص اللسان فإنه لا يصح العدول عن ذلك التعارف وتعتبر المخالفة حينئذ خروج عن المعهود. ومن جهة أخرى لا يمكن فهم الشريعة بما لم يتعارف عليه العرب في لسانهم.

وعليه فإن معرفة اللسان العربي «واجبة على كل مسلم لأنّ ما هو

(١) _ محمد الأوراغي، اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية، ص ٢٢٥.
(٢) _ المرجع نفسه، ص ٢٢٥.
(٣) _الشاطبي، الموافقات، ج٢، ص ٢٤٧.

ضروري لمعرفة شيء واجب فمعرفته واجبة»[1]. فالمسلم يجب عليه أن يعرف اللغة العربية ويتعلمها كي يعرف دينه.

فاللغة العربية ترتبط بالشريعة ارتباطا وثيقا، فبها فهّم الله سبحانه وتعالى عباده بما شرّعه من أحكام وبها عرّفهم بمقاصده وغير ذلك. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه لا منا ص من تعلم اللغة العربية وتعليمها.

٥-تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها:

إنّ المقصود بالناطقين بغيرها هم المسلمون المتكلمون غير اللغة العربية. فإنه من الضروري تعلمهم اللغة العربية لقراءة كتاب الله عز وجل وفهمه ولقراءة حديث رسوله ﷺ وفهمه.

إلاّ أنّ تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها يقوم على مكونات عدّة منها التكوين اللغوي على المستوى الرفيع ويتفرع ذلك إلى إحكام المعرفة بالعربية استعمال وإتقان العلم بها وصفا وهذا الأخير يتفرّع بدوره إلى تكوين خبرة في أوصاف النحاة المتقدّمين وأوصاف النحاة المتأخرين ومنها أيضا التكوين التربوي المتين[2].

فكل ذلك وغيره ممّا يقوم عليه تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها وهو جهة لا بد منه لأنّ تعليم اللغة العربية تعليما صحيحا يساعد على فهم النص الشرعي وفهما صحيحا دقيقا.

لا سيما وأننا نرى في عصرنا من أخلطوا أحكام اللغة العربية والذي انجرّ عنه عدم فهم النص الشرعي فهما صحيحا مما ينجم عنه أقوال لا أساس

(١) _ محمد الأوراغي، اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية، ص ٢٢٦.

(٢) _ ينظر، محمد الأوراغي، اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية، ص ٢٢٩.

لها من الصحة وهذا واضح ومعروف عند الكثير ممّن أرادوا الخلط في هذا الدين الحنيف. إذ يؤوّلون النص على غير ما يحتمله على الإطلاق وهذا إمّا جهلا بأحكام اللغة وإمّا قصدا.ونحن نقول تعلم اللغة العربية ومعرفة أحكامها وأنواع علومها قبل النطق في شرع الله عزّ وجل واجب.

٦-تعليم اللغة العربية للناطقين بها:

لا أريد في هذا الصدد أن أتحدث عن التعليم في حدّ ذاته بل أريد أن أقول أن الناطقين بها عليهم معرفتها معرفة صحيحة وتامة والإحاطة بها إحاطة كلية لأنّ هناك أيضا من العرب أنفسهم من صار يخلط في فهم النص الشرعي ولا يخلو حاله من أن يكون كحال سابقة إما جهلا وإما قصدا.

فعلينا أن نسعى جاهدين في الحث على تعلم اللغة العربية والتبحر في أنواعها وفنونها وبيان أهمية تعلمها وتعليمها.

٧-الدراسات اللغوية وآثرها في فهم النصوص الشرعية

إن للدراسات اللغوية أثر كبير في فهم النصوص الشرعية «إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد فهم علم الشريعة» [١]. فأخذ الأحكام الشرعية يتوقف على معرفة مختلف علوم هذا اللسان كي تحصل دقة الفهم، أضف إلى ذلك تصحيح تلك المفاهيم فمعرفة تلك العلوم وإتقان المعرفة بها فهو سبيل إلى فهم النص الشرعي، وتصحيح المفاهيم الخاطئة الصادرة عن الجهل بأحكام اللغة.

(١) _ ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣، ص ٥٦٥.

قال ابن خلدون متحدثا عن علوم اللسان العربي: «أركانه أربعة وهي اللغة والنحو البيان والأدب ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة»(١).

لأنها بلسان العرب وهذه الأركان التي ذكرنها صاحب المقدمة هي أركان علوم اللسان العربي إلا أنّنا أردنا أن نبيّن من خلال هذا البحث أثر تلك الدراسات اللغوية في فهم النصوص الشرعية.

أ-الدراسات النحوية:

كان العرب يتكلمون اللغة العربية سجية وسليقة «وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تعيّن الفاعل من المفعول من المجرور أعن المضاف ومثل الحروف التي تقضي بالأفعال أن الحركات من غير تكلف ألفاظا أخرى وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب» (٢).

فإلى جانب أنهم يتكلمون اللغة سجية وسليقة، فها هي ميزة أخرى للغة العربية ولا يوجد ذلك إلاّ في لغة العرب. «فصار للحروف في لغتهم والحركات والهيئات أي الأوضاع اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلّفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها إنّما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأوّل كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا»(٣).

ولقد دعت الضرورة إلى ظهور علم النحو وذلك نتيجة تفشي اللحن قال ابن خلدون: «فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في

---

(١) _ المصدر نفسه، ص ٥٦٥.

(٢) _ المصدر نفسه، ص ٥٦٥، ٥٦٦.

(٣) _ المصدر نفسه، ص ٥٦٦.

أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقي إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين» (١).

وبالضرورة فإن اختلاط العرب بغيرهم يؤدي إلى تفشي ظاهرة اللحن وذلك لأن «السمع أبو الملكات اللسانية» (٢).

فلما ظهر اللحن وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطّردة شبه الكليات والقواعد وأوّل من كتب في النحو أبو الأسود الدؤليّ بإشارة من علي بن أبي طالب ﷺ وأرضاه(٣).

لا يمكن أن نطيل الكلام فيما يتعلق بظهور علم النحو والتأليف فيه بل لنا أن نبيّن أثر الدراسات النحوية أو علم النحو في فهم النصوص الشرعية فإذا كان النحو «علم بأصول تعرف بها أحوال الكلمات العربية من حيث الأعراب والبناء»(٤). فإن هذا العلم بالدرجة الأولى يحفظ اللسان العربي من الزلل ويساهم بالكلية في فهم النص الشرعي.

إنّ النحو دليل المعنى، وفهم النص الشرعي لا يمكن أن يحصل إلاّ لمن برع في هذا العلم وعرفه معرفة تامة، فالجهل بالأحكام والقواعد النحوية بالضرورة يؤدي إلى عدم فهم النص الشرعي على الإطلاق وكذلك يشترط معرفة أحكام النحو لفهم النصوص الشرعية.

فبدون نحو يتعذر فهم النص الشرعي لذلك لا يمكن لمن لا يتقن هذا العلم

---

(١) _ المصدر السابق، ص ٥٦٦.

(٢) _ المصدر نفسه، ص ٥٦٦.

(٣) _ ينظر المصدر نفسه، ص ٥٦٦.

(٤) _ الشيخ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د ط، ٢٠٠٤، ص ١٠.

أن يتكلم في شرع الله عز وجل.

وبالمقابل فإنّ الدراسات النحوية لها الدور الفعال في فهم الخطاب الشرعي على وجه العموم، فالإحاطة بهذا العلم تمكن صاحبها من فهم النصوص الشرعية فهما صحيحا ودقيقا وسليما.

فمعرفة الفاعل من المفعول ومعرفة الحال والتمييز وغيرها من الظواهر النحوية أو الأبواب النحوية تمكن من فهم المعنى المراد من النصوص الشرعية فمثلا في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١).

ففي قوله تعالى: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فيقرأ «بالرفع وفيه ثلاثة أوجه أحدها: هو معطوف على الضمير في "بريء" وما بينهما يجري مجرى التركيب فلذلك ساغ العطف. والثاني: هو خبر مبتدأ محذوف،أي ورسوله بريء والثالث هو معطوف على موضع الابتداء، وهو عند المحققين غير جائز لأنّ المفتوحة لها موضع غير الابتداء بخلاف المكسورة ويقرأ بالنصب عطفا على اسم إنّ» (٢).

إن العالم بأحكام النحو العربي يستطيع فهم معنى قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فهما صحيحا سليما.

أمّا غير العالم بأحكام النحو فإنه لا يستطيع فهم ذلك، وعليه يتوجب معرفة أحكام هذا العلم لأن به يفهم المعنى فيلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم.

---

(١) _ سورة التوبة الآية ٠٣.

(٢) _ أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، البيان في إعراب القرآن، دار الفكر، د.ط، ٢٠٠١، ج١، ص ٤٧٠.

والأمثلة كثيرة في هذا الشأن فيمكن لنا فقط أن نقول أن على علم النحو العربي ضروري في فهم النصوص الشرعية.

ب-الدراسات البلاغية:

لا يمكن أن يتطرق إلى نشأة البلاغة وما إلى ذلك بل نوحي إلى ذلك إيماء فقط.

ظهر علم البلاغة في ظل البحث في أسلوب القرآن الكريم فظهورها مرتبط بظهور علم إعجاز القرآن الكريم. ولقد تناولها القدماء بالتعاريف وتعدد تعاريفهم وتباينت منها:

«وأمّا بلاغة الكلام فهي: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته» [(١)].

وهي: «ضفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب»[(٢)].

«وأمّا بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ» [(٣)].

ومعلوم أنها تشتمل على ثلاثة فنون: فن المعاني، والبياني والبديع.

فالدراسات البلاغية تساعد على فهم النصوص الشرعية، لاسيما وأنّ الله تعالى خاطب العرب بما يفهمون، فتلك الوسائل البلاغية لها الأثر الهام في فهم النص الشرعي وبيان معناه، فاستعمال تلك الوسائل البلاغية الغرض منه تشخيص المعاني وإفهامها لدى المخاطب.

إنّ مريد فهم النصوص الشرعية ينبغي عليه أن يكون مدركا تمام الإدراك لعلم البلاغة العربية كي يكون فهمه فهما صحيحا دقيقا وسليما من

---

(١) _ الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح غريد الشيخ محمد، إيمان الشيخ محمد دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١ن ٢٠٠٤، ص ١٤.

(٢) _ المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣) _ المصدر نفسه، ص ١٦.

التأويلات الباطلة ونحن لا نريد أن نذهب بعيدا في هذا البحث كي نتحدث عن مسألة المجاز في القرآن الكريم، بل علينا أن ننبه على أن الإحاطة بعلم البلاغة من دواعي فهم النصوص الشرعية ولنضرب أمثلة على ذلك قاله الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

فالقطع في الآية الكريمة على سبيل الحقيقة «ومعناه الإبانة والإزالة وجمع الأيدي لكراهة الجمع بين اثنين، وقد بينت السنة المطهرة أن موضع القطع الرسغ (٢).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٣). فإنّ تقطع في هذه الآية من قبيل المجاز «وحذف فاعل تقطع على قراءة الفتح لأن المقصود حصول التقطع ففاعله اسم مبهم مما يصلح للتقطع وهو الاتصال فيقدر: لقد تقطع الحبل أو نحوه قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (٤). وقد صار هذا التركيب كالمثل بهذا الإيجاز وقد شاع في كلام العرب ذكر التقطع مستعارا للبعد وبطلان الاتصال تبعا لاستعارة الحبل للاتصال»(٥).

فإن الذي لا يحبط باللغة علما ولا بالبلاغة خبرا فإنه لا يستطيع أن يميز

---

(١) _ سورة المائدة الآية ٣٨.

(٢) _ الإمام محمد علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣، ج١، ص ٤٧٢.

(٣) _ سورة الأنعام الآية ٩٤.

(٤) _ سورة البقرة الآية ١٦٦.

(٥) _ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، دط، دت، م٣، ج٧، ص ٣٨٥.

مدلول ﴿فَاقْطَعُوا﴾ في الآية الأولى و﴿تَقَطَّعَ﴾ في الآية الثانية. إذ لا يعرف أن ﴿فَاقْطَعُوا﴾ أن على سبيل الحقيقة وأن ﴿تَقَطَّعَ﴾ على سبيل المجاز، وغير المحيط بعلم البلاغة فإنه لا يدرك ذلك لأنه لا يعرف المجاز والاستعارات وغير ذلك، وهذا من آثر الدراسات البلاغية في فهم النصوص الشرعية.

ج-المفردات والمعاجم:

للعرب نشاط كثيف في ذلك، وذلك بغية حفظ هذه اللغة التي هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف.

فعلى من يريد فهم النص الشرعي أن يعرف معاني المفردات، ومدلولات الكلمات العربية وأن يميز بين الحقيقة والمجاز.

ففهم النص الشرعي يتوقف على فهم ألفاظه ومفرداته والرجوع إلى مصادر اللغة العربية، كلسان العرب لابن منظور (٧١١هـ) وكتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ) وغير ذلك من مصادر لغتنا العربية فالإحاطة بلسان العرب ومعرفة مدلولات الألفاظ له أثر هام في فهم النصوص الشرعية.

فمثلا: قوله ﷺ: «إذا توضأ أحدكم فليستنشق بمنخريه من الماء ثم لينتثر» [1]. إنّ غير المحيط بلسان العرب فإنه لا يستطيع أن يفهم معنى «يستنشق» و«ينتثر».

إلى جانب تلك الدراسات هناك الدراسات الصرفية والصوتية فلها الدور الفعال في فهم النصوص الشرعية، وفهمها فهما دقيقا، أضف إلى ذلك

(١) _ مختصر صحيح مسلم، المنذري، تح، مصطفى ديب البغا، باب الاستنثار، دار الهدى عين مليلة الجزائر، ص ٥٥.

علم القراءات والعلوم اللغوية الحديثة.

ومجمل القول فإن للدراسات اللغوية دورها الفعال في فهم النصوص الشرعية فمن أحاط بها وعرفها فهم النص الشرعي فهما دقيقا وصحيحا ومن لم يحط بها فإنه لا يستطيع فهم النصوص الشرعية على الإطلاق. والواجب على من أراد فهم كتاب الله عز وجل وحديث نبيه ﷺ أن يتعلم اللغة العربية بمختلف علومها، إذ هي السبيل المؤدي إلى فهم النصوص الشرعية.

خاتمة:

من خلال بحثنا في هذا الموضوع نخلص في الأخير إلى جملة من النتائج:

١-لغة العرب أساس في فهم النصوص الشرعية.

٢-تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها من المسلمين واجب.

٣-يتوقف فهم النصوص الشرعية على الإحاطة بلسان العرب ومعرفته ومعرفة أحكام النحو العربي معرفة تامة لأن النحو دليل المعنى، كذلك الإحاطة بعلم البلاغة ومعرفة وسائلها وآلياتها حتى يحصل الفهم الصحيح، ويبلغ المراد المطلوب.

٤-الإحاطة بعلوم اللغة كعلم الأصوات والصرف وغيرها.

٥-الدراسات اللغوية بجميع أنواعها سبيل من سبل فهم كتاب الله وحديث رسوله ﷺ.

توصيات:

١-إتقان لغة العرب بجميع أنواع علومها، قبل التطرق إلى النصوص الشرعية.

٢-البعد عن الخلط في فهم النصوص الشرعية.

٣-الجاهل باللغة العربية وأحكامها لا يحق له أن يتكلم في شرع الله عزّ وجل.

٤-الجهل باللغة العربية وأحكامها سبب مباشر في عدم فهم النصوص الشرعية.

٥-على العلماء والباحثين إيقاف أولئك الذين يقولون في شرع الله بلا علم، وإلزامهم بالحجة وإفحامهم عن الكلام.

٦-الإقرار بأن دراسة اللسان العربي من أجل فهم الشرع لا دراسة اللسان في ذاته ومن أجله.

قائمة المصادر والمراجع

١. إبراهيم موسى بن محمد أبو إسحاق الشاطبي، تح محمد الاسكندراني، عدنان درويش، الموافقات في أصول الشريعة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢.

٢. الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تح خالد السبع العلمي، زهير شفيق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٩.

٣. الإمام محمد علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣.

٤. أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، البيان في إعراب القرآن، دار الفكر، د.ط، ٢٠٠١.

٥. الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح غريد الشيخ محمد، إيمان الشيخ محمد دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤.

٦. ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣.

٧. سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، دار التاريخ، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.

٨. الشيخ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د ط، ٢٠٠٤.

٩. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، دط، دت، م٣.

١٠. أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار ابن

حزم، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢.

١١. محمد الآوراغي، اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٠.

١٢. مختصر صحيح مسلم، المنذري، تح، مصطفى ديب البغا، باب الاستنثار، دار الهدى عين مليلة الجزائر.